قطرات من بحر التصوف

للأستاذ محمد لبيب البوهى

التعلق بصفات الله والتعبد بصفات الإنسان :

يضع الصوفى أمامه كل صفة من صفات الله ـ ويفتح لها قلبه وروحه ويتعلق بكل مدلول لها ويحاول جاهداً أن تسرى معانيها فى دمه لتصبح جزءاً من كينونته .

ومن صفات الله العزة . والكبرياء .. والعظمة .. والغنى .. والقدرة ـ والعلم وغير ذلك من أوصاف الكمال المطلق الذى لا نهاية له ، والتعلق بهذه الصفات هو التخلق بها وحمل النفس عليها بالمجاهدة فلا يرى فى الوجود إلا الله فإذا تفكر فى وصف العزة انتقل إليه هذا المعنى فصار عزيزاً لعزة الله وإذا تفكر فى وصف الغنى استغنى تماماً عما سوى الله ، وإذا تفكر فى وصف القدرة لم يلتجىء فى حال ضعفه وعجزه لغير قدرة الله .

وهكذا فى جميع الأسماء والأوصاف — وتختلف درجات الصوفية طبقاً لعمق هذه المعانى فى النفس ودرجات تأصلها .

* * *

ويرى الصوفى أن كل صفة من صفات الله تقابلها صفة من صفات الإنسان ،

فالغنى يقابله الفقر .

والعز يقابله الذل .

والقدرة يقابلها العجز .

ولا بد من مواجهة النفس فى عبادتها بتلك الصفات ـ فمن استغنى بالله افتقر إليه ، ومن تعزز بالله ذل له .. ومن شاهد قدرته رأى عجز نفسه .

وهناك حركتان تلازمان تنفيذ هذا المنهج الصوفى .

حركة باطنية .

وحركة ظاهرية .

فالتعلق بصفات الله حركة باطنية

وكلما تعمقت فى الباطن ارتفعت درجة صاحبها .

وتنفيذ صفات النفس المقابلة لصفات الله . حركة ظاهرية . لأنها عبادة ـ تنفيذ .

وكلما ظهرت صفات الإنسان على حسه ظهوراً واضحاً عظمت درجة صاحبها .

وبالسير فى الطريق .. وبالمجاهدة .. والمواظبة . . تندمج الحركتان . . الظاهرية ـ والباطنية .

فيصبح الصوفى وهو لا يرى إلا الله . ولا يحيا إلا بالله .

ولا يأتى عملا إلا وهو يرى فيه آيات الله وهى درجة نورانية تستحق ما يبذل فيها من جهد ومشقة .. فإن عاقبتها حلاوة لا توصف ـ تشعر بها النفس ويعجز عن وصفها اللسان .

* * *

وهناك خطأ شائع فى حياة الناس ذلك هو ادعاؤهم من الصفات ما ليس لهم ـ وما هو مناقض لحكمة الحياة ـ كاتصاف العبد ـ اتصافاً نفسياً شهوانياً فيه للنفس متعة ذاتية ـ بصفات العز . والعظمة ـ والكبر . والعلو . والادعاء .

فمن فعل ذلك استحق من الله الطرد من رحمته ، وفى الحديث القدسى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى : « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما قصمته »

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : « لا أحد أغير من الله فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن »

وفى البخارى .. روى شىء عن قصة سيدنا موسى عليه السلام ـ أنه خطب فى الناس خطبة ذرفت منها العيون .

فقام إليه رجل فقال له .

هل تعلم أحداً أعلم منك ؟

فقال موسى .. لا

فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فقال له بلى ، عبدنا خضر هو أعلم منك

فكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه .. لقد أدبه ربه بطلب غيره حتى صار تلميذاً له يأمره وينهاه .

* * *

والقاعدة أنه إذا ادعى العبد ما ليس له ـ سلبه الله ما ملك ـ وإذا تحقق بوصف من أوصاف الله خلع الله عليه بركات هذا الوصف .

فكلما نزلت أرضاً أرضاً

سما بك ربك سماء سماء

محمد لبيب البوهى